Coptology

والدة الإله القديسة مريم في صلوات السواعي (الأجبية)

المقالة الثانية

د. جورج حبيب بباوي

٢٠١٣

مهداة إلى الأب متى المسكين في ذكرى نياحته

www.coptology.org

العذراء القديسة مريم

"السماءُ الثانية"

السماء –كما سبق وأشرنا في المقال السابق– هي أحد أسماء الله، حسب ما نعرف من الأدبيات الآرامية والعبرانية الشائعة في فترة قبل تجسد رب المجد.

والسماء هي أيضاً الحلول الإلهي واستعلان الله. وتصوُّرنا أن السماء مكانٌ، يعود إلى الخلط اللغوي بين استعمال فعل "خلق – *Create*" وفعل "برأ"؛ لأن الفعل برأ يعني أيضاً خلق. ولكن الفعل برأ –عبرانياً– يعني أيضاً يفدي؛ لأن الخلق والفداء عمل واحد، الخلق بداية، والفداء هو تكميل ما يعجز عنه الإنسان. لأن الله في البدء "خلق السماء (عبرانياً سموات) والأرض"، أي أنه لم يخلق فقط، بل أعلن إلوهيته بالخلق، فالخلق واستعلان إلوهية الله وربوبيته هما معاً نسقٌ واحدٌ لا يختلف عن استعمال الفعل العبراني "برأ"، أي خلق، ومنه جاءت كلمة "البارئ"، وكما قلنا أن الفعل –عبرانياً– يعني أيضاً "فدى"، كما أن "فدى، واقتنى" يعبران عن ذات النسق، أي العمل الإلهي الواحد الذي يمكن التعبير عنه بأكثر من كلمة، وبأفعال متعددة تشرح كمال العمل الإلهي.

* يقول الرب نفسه: "السماء هي كرسي الله والأرض موطئ قدميه" (متى ٥: ٣٥). والكرسي أو العرش الإلهي ثابتٌ على الأرض؛ لأن الاستعمال المجازي "موطئ قدميه" معناه أنه استقر على الأرض تعبيراً عن وحدانية الحضور في كل مكان، أو بدقة أكثر، لا يوجد مكان بدون الخالق أو بدون الله.

"السماء الثانية" تعبيرٌ جاء به تجسد الله الكلمة الذي "يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ٢: ٩)، والذي سكن وحلَّ ووُلِدَ بعد ان حُبل به بالروح القدس في أحشاء البتول القديسة مريم. وعندما يقول الملاك للقديسة مريم: "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك" (لوقا ١: ٣٥)، فإن الذي قرأ الترجمة السبعينية للعهد

القديم، يدرك أن القديسة مريم حلَّت محل خيمة الاجتماع التي حلَّ عليها روح الرب وظللها. والفعل يظلل هو episkizein – ἐπισκιάζιν وقد ورد أيضاً عن سحابة المجد الإلهي في تجلي الرب على جبل طابور (لوقا ٩: ٣٤)، وهو ما عُرف في الترجمة السبعينية عن سحابة المجد الإلهي (خروج ٤٠: ٣٥) التي حلَّت على خيمة الاجتماع وملأت المكان بالمجد الإلهي. وهو أيضاً ذات الفعل الذي ورد في (مزمور ٩١: ٤)، و"الخوافي" هي الريش الناعم في جناح النسر، ولذلك يقول المزمور: "بِخَوَافِيهِ يُظَلِّلُكَ وَتَحْتَ أَجْنِحَتِهِ تَحْتَمِي" .. والجناح هنا هو القوة الإلهية، ولكن الفعل نفسه يؤكد قوة روح الرب التي تختفي وراء الكلمات البشرية.

لا زلت أقول وأكرر أن التاريخ الكنسي شرقاً وغرباً يؤكد لنا أننا لم نستوعب بعد تجسد الله الكلمة، ذلك الحدث التاريخي الذي تم في ملك أوغسطس قيصر (لوقا ٢: ١ – ٧)، وفتح التاريخ واللغة والعلاقات الإلهية – الانسانية، والانسانية – الإنسانية على مجالات لم تكن متاحة، بل كانت مستحيلة. ولا زالت كلمات، بل زئير أسد كبادوكية النزينزي تدوّي عبر كل العصر وهي: "حاجتنا إلى لغة إنسانية جديدة تعبِّر عن تجسد الله على قدر المستطاع".

عندما يخلي الابن ذاته (فيلبي ٢: ٦)، فهو كما تقدم العظة الرابعة من العظات الروحية للقديس مقاريوس الكبير (٤: ١٠) الله غير المحدود الذي يفوق الإدراك في صلاحه ورحمته *adminished Himself* [١] وهي ذات الحركة الإلهية التي لا تزال تعمل في حياتنا عندما يأتي الينا غير المحدود ويخلي ذاته لكي يحل فينا (أفسس ٣: ١٧)، فهو التواضع الإلهي الحقيقي الفائق الذي يجعل الابن له المجد يسكن أُقنومياً في أحشاء البتول لكي يأخذ لنفسه الجنين الذي ينمو بالحبل ويولد كسائر البشر، وهو ما يجعل مكان حلوله السماء الثانية، أي القديسة مريم؛ لأن السماء الأولى حيث العرش الإلهي لم تكن هي استعلان المتجسد ابن الله:

"بقوته الإلهية حملته أحشاء مريم، ذاك الذي يحمل الكل بقوته".

---

(١) راجع ترجمة A. J. Mason والفعل اليوناني يعني: "يلاشي" أو "لا يحسب وزناً" أو "لا يهتم بالمرة" أو "ينقص ذاته" (راجع عظات القديس مقاريوس الكبير ترجمة مركز الآباء، يونيو ١٩٩١، ص ٥٢).

(افرام السرياني – ترنيمة على البشارة ٤: ١٨٥).

فالتجسد كما يقول افرام السرياني:

"أحشاء أمك قلبت المعايير
لأن مثبت كل الأنظمة جاء ودخل بنظام غني
جاء إلى أحشائها فقيراً معوزاً
واستُعلِن منها غنياً
جاء إليها متواضعاً
ووُلِدَ منها مُشرقاً
جاء إلى أحشائها المحارِب القوي
ولبس في أحشائها جسداً يخاف".

(ترنيمة على البشارة – ١٢ راجع The Classics of Western Spirituality ص ١٣٢).

الحس الروحي يرى برؤيا الإيمان؛ لأنه هكذا ينشد افرام السرياني:

"مباركٌ الذي جعل جسدنا هيكلاً؛
لأجل إخفاء ذاته".

(ترنيمة على البشارة – المرجع السابق ص ٨٥).

ويقول:

"مباركٌ الذي حلَّ في الحشا، وفيه بنى لنفسه
مكاناً يعيش فيه،
وهيكلاً يسكنه"

(المرجع السابق ص ٨٧ – ٨٨).

حتى نستعيد Paradox التجسد:

والكلمة *Paradox* حسب الأصل اليوناني لا تعني التناقض، حسب الترجمة الشائعة، بل *Para* تعني ما هو أبعد، زكلمة *Doxa* تعني التعليم الحقيقي أو المستقيم،

فهي تعني ما يعلو على المنطق البشري الطبيعي الخاضع لقوانين المادة أو العلاقات الإنسانية العادية، وعلى سبيل المثال يقول مار إفرام:

"لنشكر ذاك الذي نزع شوكة اللعنة، عندما كُلِّلَ بإكليل الشوك.
لنشكر ذاك الذي قَتَلَ الموتَ بموته.
لنشكر الذي كان صامتاً (متى ٢٧: ٥٠) لكي بصمته؛
يعلن براءة الإنسان.
لنمجِّد الذي رقد ونام في القبر لكي يرغم الذي أسرنا على أن ينام، فنتحرر"
(الترنيمة ٣ المرجع السابق ص ٨٧).

كيف قلب التجسد المعايير؟

ينشد افرام:

"لقد رأى الله أننا نعبد المخلوقات
لبسَ جسداً مخلوقاً لكي يمسكنا نحن
مِن حيث تكونت عندنا هذه العادة،
وبالجسد الذي صنعه شفانا صانعنا،
وبالمخلوق أحيانا خالقنا".

(ترنيمة ٢١: ١٢ على البشارة راجع ص ٣١ المرجع السابق والنص كاملاً ص ١٧٦).

ولأن كلمة الختم *Seal* كلمة طقسية وهامة، ينشد افرام:

"اللاهوت ختم كيانه على إنسانيتنا
لكي ما تقطع الإنسانية وتختم بخاتم اللاهوت *The Seal of Divinity*"

(ترنيمة على البشارة ١: ٩٩ المرجع السابق ص ٧٤).

ثيئوطوكوس، والسماء الثانية:

جاء تأكيد تجسد الرب واتحاد اللاهوت بالناسوت حاسماً ضد كل تفسير يحاول

طمس التجسد لا سيما هرطقة نسطور الذي لم يكن يعوزه الذكاء، ولكن الذكاء ليس هو المشكلة، بل اخضاع هذا الذكاء لمنطق الحواس الخمس ومقاومة "ذكاء المحبة" الذي يعلو على المنطق الطبيعي والذكاء الجسداني المقيد بقيود الجسد. وإذا عدنا إلى الشعراء مثل افرام والنزينزي، فالشعر أصدق من أي خطاب آخر لأنه يربط بين رؤية الإيمان **والتغيير المطلق** الذي جاء به التجسد، لاحظ كيف ينشد افرام

"يا ربي
إن ميلادك صار الأم التي تلد الخليقة
ميلادك صار الوالد للكل".

(نشيد ٢٣ ص ١٨٨).

بل:

"الخليقة كلها صغيرة جداً ولا تكفي لتخفي مجدك
الأرض والسماء معاً كلاهما ضيق *narrow*
فلا يصبحان حِجراً Laps لك
لكن صار حِجرُ Lap مريم واسعاً
حللت وجلست في حجرها *her Lap*".

(المرجع السابق ٨٩).

اتحاد اللاهوت بالناسوت جعل أحشاء مريم معمل ***ergasterion*** اتحاد الطبيعتين (وهذا التعبير رد في التسبحة السنوية وعند ***Proclus*** اسقف القسطنطينية ق ٥)، ومن هنا جاء تعبير السماء الثانية.

"أنت هي أم النور المكرمة ...
يا والدة الإله
السماء الثانية
لأنك أنت الزهرة النقية غير المتغيرة
والأم الباقية عذراء
لأن الآب اختارك

الروح القدس ظللك
الابن تنازل وتجسد منك".

(صلاة باكر).

عبارات تحمل عظمة ورفعة الشركة الإلهية الإنسانية، وكل هذه التعبيرات وردت عند الآباء، فالسماء الثانية = ثيئوتوكوس

* الزهرة النقية وردت عند كيرلس الكبير[١]

* ودوام بتولية الأم وردت عند كل الآباء (القديس اثناسيوس تجسد الكلمة مجلد ٢٥: عامود ١٢٨ – مقالة البتولية، النص القبطي، حيث يذكر المعلم السكندري:

"لو كان لديها أولاداً آخرين، لَمَا تجاهلم المخلص ولَمَا ترك أمه وديعةً عند يوحنا الرسول) ولَمَا ذهبت هي لتعيش (مع يوحنا) بينما لديها أولاد آخرين .. لقد ظلت بتوليتها غير دنسة .. ومريم ولدت الله ظلت عذراء حتى النهاية لكي تظل مثالاً لكي من يطلب البتولية".

(نشر النص القبطي في Le Museon, 42, page 243-244).

وفي عظة القديس كيرلس السكندري أمام مجمع أفسس، يقول:

"السلام لك يا مريم يا والدة الإله
العذراء والأم
أم النور
الإناء الذي لم يفسد
السلام لك يا عذراء مريم
الأم والعبدة
العذراء؛ لأنك ولدت عذراوياً
الأم؛ لأنك حملتيه على ذراعيك وأرضعتيه اللبن

---

(١) راجع شرح تجسد الابن الوحيد للقديس كيرلس عمود الدين؛ لأن الزهرة ورائحة الزهرة هي عن تجسد الرب يسوع، ولكن الثيئوتوكوس نالت الحلول الإلهي ومجد سكنى اقنوم الله الكلمة واشتركت في ذات الشرف الذي شرَّفَ به الابن له المجد الطبيعة الانسانية (راجع فقرة ١٠ تعريب د. جورج حبيب بباوي).

العبدة؛ لأنه أخذ منك صورة العبد
لقد دخل الملك عندك أيتها المدينة، أي أحشاءك
ومن الحشا وُلِدَ كما أراد، وظلَّت أبوابك مختومة
لأنك ولدت بدون زرع بشر .." (مجلد ٧٧ عامود ١٠٣٢).

وقبل القديس كيرلس السكندري يسأل أبيفانيوس أُسقف سلاميس، وهو أصلاً يهودي كان قد آمن بالمسيح (حوالي ٤٠٣):

"ألا يكفي الاسم وحده كشهادة؟ ألا يكفي اسم العذراء أن يقنع كل من يبتغي العراك؟ هل سمعنا أحداً يتجاسر ويقول اسم القديسة مريم دون أن يضيف على الفور العذراء".

(ضد الهرطقات ٦٧: ٦ مجلد ٤٢ عامود ٧٠٥)؟

ونكتفي بقطعة رائعة من شعر القديس غريغوريوس النزينزي أسد كبادوكية:

"عندما يرسم الفنان لوحةً على قطعةٍ من الخشب،
يحدد ملامحها أولاً بفرشاةٍ وبألوان خفيفة،
ثم يرسم الأشكال بألوان زاهية،
ويكمِّل اللوحة بباقي الألوان.
هكذا كانت البتولية ميراث المسيح الأبدي،
استُعلِنَت أولاً في قلةٍ من البشر،
ظلَّت غامضةً في زمان سيادة الشريعة.
تحت الشريعة، كانت الألوان خفيفةً،
ظهَرَت ضعيفةً في قلةٍ من البشر.
بعد أن وُلِدَ المسيح من عذراء وبتول وأمٍّ،
لم تكن ولادته مقيدةً بقيود جسدانية،
بل، لأنه الله جاء الى العالم.
كان ضرورياً أن لا يولد من زواج،
فهو بلا أب (حسب الجسد).

قدَّست العذراء كل النساء،
وغلبت المرارة التي جاءت بها حواء.
ميلاده قهر قوانين الجسد،
ببشارة الانجيل خضع الحرف للروح؛
فدخلت النعمة.
أضاءت البتولية أمام المائتين
ظهرت في المسكونة حرةً
حررت المقيدين بقيود العالم
هي أسمى، سمو السماء
وهي أعظم كعظمة الحياة الأبدية
أمام الحياة الأرضية المتغيرة،
بل كعظمة الله التي لا تقارن بالإنسان"

(١: ١٨٩-٢٠٨ مجلد ٣٧ عامود ٧٣٥-٥٣٨).

د. جورج حبيب بباوي